بريد الجمعـــــة

إثــراء
المعارف الرقمية

الجُمعَة ■ ٤ يناير ٢٠٠٢ ■

بريد الجمعـــة

يكتبه: عبدالوهــاب مطــاوع

صرير المفتاح!

انا سيدة فى الثامنة والاربعين من عمرى أعمل بالتدريس. تزوجت منذ ٢٣ عاماً زواجا تقليديا.. فاكتشفت فى زوجى انسانا بكل معنى الكلمة له قلب خال من كل حقد أو ضغينة. لا يؤذى أحدا ولو بكلمة أو اشارة. متدينا يؤدى فروض ربه وصاحب مشاعر رقيقة يتكلم قليلا ويفعل كثيرا. مثقفا يتذوق الجمال فى كل شىء، فأحببته وأحبه اخوتى وأصدقائى وجيرانى، وساد الاحترام المتبادل حياتنا معا.. وبعد رحلة بين الأطباء استمرت عدة سنوات. فى بداية الزواج اكتشفت اننى لن أستطيع الانجاب وحزنت لذلك وخشيت من تأثيره على زوجى.. فكان رد فعله لذلك هو أن قال لى أنه سعيد معى وراض بما اختاره له الله.. ورفض عرضى عليه بأن يتزوج أخرى لينجب منها بغير أن نفترق، مؤكدا لى أنه لا يريد أن يجحد نعمة ربه عليه وأن هذه النعمة الجليلة هى أنا!

فمضت حياتنا حلوة وجميلة وازداد ترابطنا عمقاً وعودنا نفسينا على أن نكون أنا وهو فقط «أسرة» متكاملة وسعيدة.. نصحو مع الفجر كل يوم ونؤدى الفريضة ثم نعد طعام الافطار ونجلس لنتبادل الأحاديث الشهية التى لا تنقطع بيننا أبداً وأودعه لكى يذهب إلى عمله وأقبله وأقبل يده واطلب منه أن يردد دعاء معينا قبل الخروج. فيردده ويخرج، وأذهب أنا إلى عملى وارجع منه قبل أن يعود وانتظره فى شوق.. وحين اسمع صوت المفتاح فى باب الشقة احمد الله على عودته سالما واستقبله كما يستقبل الأطفال الصغار آباءهم وأتهلل لرؤيته وأهلل وأرحب به وأسعد بما يحمله لى مهما يكن صغيرا. وبعد الغداء أعد له الشاى.. ونجلس سويا لنحتسيه وأطلب منه أن يحكى لى بالتفصيل الممل كل ما مر به خلال يومه، واحكى له بدورى كل ما حدث لى خلال ساعات عملى واستقصى منه أخبار الرحلات التى تنظمها الشركة التى يعمل بها للعاملين.. وأسعد حين أعرف بنبأ رحلة جديدة، واستعد لمصاحبته فيها.. فقد سافرنا معا إلى معظم المشاتى والمصايف فى بلادنا فى هذه الرحلات واخذنى اكرمه الله معه لأداء فريضة الحج.. وبعدها بسنوات أخذنى لأداء العمرة..

وفى يوم الاجازة نذهب فى الشتاء إلى زيارة عائلية أو إلى نادى الشركة لنستمتع بأشعة الشمس وقد نتلاقى أحيانا خلال يوم العمل فأستأذن من عملى ويستأذن هو من عمله.. ونذهب إلى حديقة الحيوان التى نحبها ولنا فيها ذكريات جميلة.. ولابد فى كل مرة من أن نجد ما يضحكنا سويا ونتندر به فيما بعد، ونبدو خلال ذلك كطالب وطالبة قد زوغا من المحاضرات وتوجها للحديقة فى موعد للحب.

أما فى شهور الصيف وخاصة عند اشتداد الحر. فقد كنا نخرج سويا كل مساء، تقريبا لنستروح نسمات الليل ونذهب إلى حديقة عامة أو إلى نادى شركته أو إلى نقابتى ومعنا ترموس الشاى والراديو وسجادة الصلاة. ونواصل الكلام الذى لا ينقطع حبله بيننا أبداً.

أما فى عيد ميلاده الذى لا يتذكره أبداً.. فلقد كنت افاجئه بعد صلاة الفجر كل سنة بالتورتة والشمعة والهدية واضبط جهاز التسجيل على أغنية «أنا لك على طول» وهى أغنيتنا الخاصة منذ ليلة زفافنا.. فيفرح كثيرا بالمفاجأة ويسعد بها.. ونغنى معا كالأطفال.. أهلا رمضان.. حين يجىء الشهر الفضيل.. ونغنى أهلا بالعيد حين يأتى فى موعده.. ويحضر زوجى البالونات ويعلقها فى مدخل الشقة.. ونستخدم فى أحاديثنا كلمات ومفردات خاصة بنا وحدنا لا يفهم ما ترمز إليه سوانا.. وأوقاتنا كلها نقضيها معا فلا يغيب احدنا عن الآخر إلا خلال ساعات العمل والنوم فقط وحياتنا مليئة بالمودة والرحمة

وفجأة بدأ لون عينى زوجى الحبيب يميل للاصفرار.. ودخلنا فى متاهة طويلة من التحاليل والمناظير والأشعات وترددنا على أكثر من مستشفى وبدأ حبيبى يعانى من الام فى البطن وارتفاع فى درجة الحرارة، وينقص وزنه بسرعة واجريت له جراحة استكشافية استغرقت ٥ ساعات انخلع قلبى طوالها وجاءت النتائج مفزعة.. فالحالة متأخرة ولا أمل فى العلاج.. ومادت بى الأرض ورجوت الطبيب ألا يخبره بشىء وحجبت دموعى الغزيرة عنه لكيلا يشك فى شىء وحزمت أمرى.. فلتكن إذن مشيئة الله.. والاعمار بيده وحده.. ولكن المهم هو أن يحيا زوجى الحبيب أيامه الباقية فى سعادة وسرور، وحصلت على اجازة من عملى وتفرغت تماما لمرافقة زوجى ورعايته والحديث معه.. والتخفيف عنه والاهتمام بأمره ودخلنا فى دوامات كثيرة لا أريد ازعاج القراء بتفاصيلها.. وزوجى صابر لا يردد سوى عبارة الحمد لله ودعاء سيدنا أيوب: رب انى مسنى الضر وانت أرحم الراحمين ولا تفارقه الابتسامة وهو فى أشد حالات الالم والمعاناة.. ولا يشكو.. ولا يعترض على قضاء الله فيه ويصلى فى سريره.. وإذا شعر بالضيق أو ارتفعت حرارته وضعته على الكرسى المتحرك وخرجت به من الغرفة وتجولنا فى الطرقات ونحن نغنى معا وازدادت حالته سوءا ونقل مرة اخرى للعناية المركزة وطلب منى فى أحد الأيام أن أعود للبيت لقضاء الليل فيه ورجوته أن يسمح لى بالبقاء إلى جواره فألح على فى ذلك فقبلت يده وطلبت منه أن يتماسك وودعته وعينى فى عينه إلى أن غادرت الغرفة.. وفى الصباح الباكر رجعت إليه فوجدته قد لبى نداء ربه خلال الليل واستراح من الألم الرهيب الذى تحمله صابرا ستة أشهر ومات زوجى وحبيبى وصديقى ومستشارى ومؤنس وحدتى ونصفى الحلو وماتت معه الفرحة والأمل وكل شىء.

ولقد مر الآن عام ونصف العام على رحيله ومازلت أشعر كل يوم أنه اليوم الذى مات فيه حبيبى.. وهو معى فى كل مكان.. وكل وقت فى عملى وفى الشارع وفى البيت ولست اعترض على قضاء الله، وأعلم جيداً أن الموت حق لكنى فقط أفتقد زوجى.. وافتقد صوته وضحكته وابتسامته وصوت المفتاح حين كان يديره فى باب الشقة عند عودته من عمله.. وأتوق لأن أصنع له الشاى وأعد الغداء وأخرج معه.. وأتأبط ذراعه.. واحكى له أو اسمع منه.. واعجب كيف ادخر الله لى معه كل هذا الحب وقد تزوجنا فى الأصل زواجا تقليديا.. ولم يكن احدنا يحب الآخر قبل الزواج. لقد أديت له العمرة، واعتزم أن أحج عنه إن شاء الله وأهبه ثواب الفريضة ومن فضل ربى أخرجت له صدقة جارية، وأزوره كل شهر، وأتكلم معه حين أزوره وأتكلم معه فى البيت، وأكتب له كل يوم، وأشعر بأنه يزورنى فى البيت وترفرف روحه حولى فيه وسواء أكان هذا الاحساس خاطئا أو صحيحا فإنه يشعرنى بالراحة ولن أقول لك اننى لا آكل الطعام ولا أشرب الماء ولا أخرج من بيتى.. وإنما سأقول لك فقط اننى حزينة حزناً لا يعلمه إلا الله وحده وكلما تذكرت أيام المرض أو موقفا له أو رن صوته فى اذنى اعتصرنى الألم فلقد كنت استغنى به عن كل شىء آخر فى الحياة وأشعر بأن الله قد عوضنى به عن الأبناء وأشعر باليتم الحقيقى بعد رحيله إذ ليست اليتيمة هى من مات أبوها أو أمها فقط وإنما من مات أيضا زوجها الحبيب الذى احبها واحبته واعزها واعزته واكرمها وأكرمته وانى لأرجو من كل زوجة أن تغتنم الفرصة قبل فوات الأوان وتتجاوز عن اية صغائر أو خلافات وألا تغضب زوجها لأى سبب من الأسباب، لأنه ليس هناك شىء يعوضها عن فقدها لزوجها، والزوج يا كل زوجة - هو عزك وفرحتك وسعادتك وسترك وملاذك وأمنك، ولقد كنت افعل كل شىء من أجل زوجى.. فأتزين من أجله وأرتدى الحلى له، وأحب كل شىء من أجله، وأرى الدنيا بعينيه وحين أغمضهما للمرة الأخيرة لم أعد أرى شيئا اننى أدعو الله كثيرا لزوجى واستغفره له واطلب له الرحمة لانه طيب القلب وقد أكرمنى حيا وميتا.. كما أرجو أن يسامحنى زوجى إذا كنت قد أغضبته ذات يوم أو اختلفت معه فى شىء عابر مع انى كنت أسارع بالاعتذار إليه إذا حدث ذلك واسترضيه ولا أطيق أن يخاصمنى وكان هو متسامحا إلى أقصى الحدود يرحمه الله.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

كل أشكال الوحدة وفقدان الرفيق مؤلمة للإنسان، لكن الوحدة الدافئة بذكريات السعادة والحب والأيام الجميلة أخف وطأة بعض الشىء من الوحدة الباردة الخالية من أى عزاء.. حتى عزاء الذكرى كما أن رصيد السعادة القديم.. يزيد من قدرة المرء على احتمال تصاريف القدر ويعينه على تقبل ما لا مفر له من التسليم به من حقائق الحياة، وأنت يا سيدتى تعايشين ذكريات زوجك كل لحظة وتشعرين بروحه ترفرف عليك وتؤنس وحدتك.. وتخفف عنك.. وتعينك على احتمال الحياة، فإذا كان قد غاب بجسمه عنك، فانه «حاضر» كل لحظة فى وجدانك وقلبك.. يثرى بهذا الحضور الشفيف حياتك ويجعل لها معنى وقيمة اضافية، والأعزاء لا يموتون حين يرحلون عنا.. وإنما يموتون فقط حين ننساهم.. ومادمنا لا ننساهم فهم معنا.. وفى قلوبنا إلى أن يقضى الله امرا كان مفعولا.

ولقد توقفت امام اشارتك إلى انك قد تزوجت زوجك الراحل زواجا تقليديا لم تسبقه قصة غرام ملتهب، فكان زواجا سعيدا وموفقا ودافئا بالحب والعطاء المتبادل، وتذكرت ما قرأته ذات يوم لأحد كبار أدبائنا الراحلين عن حياته الشخصية وكيف تزوج - وهو الذى سطر آلاف الصفحات عن الحب - زواجا تقليديا بعد طول تخبط فى حياة العزوبة والوحدة، فسخط على ذلك فى بداية الزواج.. وشكا من أقداره التى اضطرته للزواج التقليدى وهو من هو، إلى أن رجع ذات يوم إلى الآية الكريمة التى تقول «ومن اياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون» فتفكر فيها طويلا وتساءل بروح الباحث عن معانى الأشياء لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى «وجعل بينكم حبا وهياما» فتنبه إلى أن عاطفة الحب متقلبة ومتغيرة وقابلة للزوال. وأن المودة والرحمة هما العاطفة الأبقى والأكثر دواما واتصالا.. فاكتشف فى هذه اللحظة ما وصفه «بحكمة الله» الخافية عن العقول فى الزواج وهو ان يُبنى على الأسس القابلة للدوام، والاستمرار وليس على الأسس الواهنة المعرضة للانهيار وكتب قائلاً أن من يشكون من تغير أحوال الحب بعد الزواج أو همود واختلاف الحال عما كان عليه خلال الخطبة لو تاملوا حكمة الله قليلا لادركوا أن الحب لم يخمد وإنما تحول إلى العاطفة الابقى، ولو انه بقى على نفس طبيعته السابقة قبل الزواج.. لظل قابلا للتغير والزوال فى أى مرحلة من العمر، فهدأت نفسه واعتبر حياته الزوجية قائمة على حكمة الله أى على المودة والرحمة.. واستقبلها راضيا بها.. فسعد بزوجته وسعدت به ونجحت عشرتهما وطالت لما يقرب من ثلاثين عاما.. ورحلت زوجته عن الحياة قبله بعدة سنوات فودعها بالدمع السخين واحتفظ لها دائما بأجمل الذكرى حتى لحق بها.

وما ترويه عن زوجك الراحل يا سيدتى يؤكد ان زواجكما كان أيضا مبنيا على حكمة الله فى الزواج وهى المودة والرحمة وليس فقط على العاطفة المتاججة القابلة للتغير ولهذا فلقد أثمر ثماره الطيبة، واستمتع كل منكما بعشرة صاحبه حتى فرق بينكما مفرق الجماعات. كما أن وفاء زوجك لك واكتفاءه بك وعزوفه عن التخلى عنك أو الارتباط بغيرك جريا وراء أمل الانجاب قد عمق من روابطكما كثيرا فامتزجت حياتكما.. وتشابكت خيوطكما واعتبر كل منكما الآخر شريكه ورفيقه وعزاءه وتعويض السماء له عن الحرمان من الأبناء.. لهذا كانت معاناتك عقب رحيل زوجك شبيهة بما وصفه الأديب الكبير مصطفى الرافعى بانه معاناة تحليل اجزاء روحين امتزجا بالحب العميق للفصل بينهما. غير أنه من رحمة السماء بالبشر أننا نستطيع أن نواصل هذا الامتزاج الروحى بمن نحبه حتى ولو رحل عنا دون ان نضطر لمكابدة آلام الفصل القاسية هذه وهو ما تفعلينه الآن وتجدين فيه عزاءك عن رحيل نصفك الآخر.. فأما نصيحتك لكل زوجة بان تغتنم الفرصة قبل فوات الأوان وتتجاوز عن الصغائر والخلافات، لأنه ليس هناك ما سوف يعوضها عن فقدها لزوجها إذا فقدته.. فإنها نصيحة مخلصة وصادرة من أعماق الألم.. وتستحق ان يتوقف امامها كل شركاء الحياة رجالا ونساء ويتاملوها ويتفكروا فى مراميها.. وشكرا لك على رسالتك المعبرة.. وارجو أن تاسو الأيام جراحك وتعوضك عمن فقدت خيرا والسلام.